

سطوة الأديان

على حرية الفكر

كتبتم فضلاً في مجلسكم الممتعة تحت هذا العنوان ردأ على مقال كتبته في جريدة الأهرام تحت عنوان (سطوة الاتحاد على الأديان) قاتم فيه :
 « لا أعرف كيف يجوز لعالم مثل ... أن يكتب هذا المقال وتحت هذا العنوان .
 فإذا فرض ولسنا بأن للاتحاد في هذه العصر سطوة على الأديان ، فلماذا لا يتذكر ما كان من سطوة الأديان على حرية الفكر ، وعلى العقول تغلها وتصدّها عن مسأيرة متجهاتها الطبيعية خلال كل العصور ،

وأنا من ناحيتي لا أعرف كيف يجوز لنفاذة نبيه مثلكم أن يأخذ على مثل هذا الإغفال وقد قلت في ذلك المقال نفسه عن سطوة رجال الدين على حرية الفكر :
 « فنشبت بين الاتحاد والدين من ذلك الحين (القرن السادس عشر) معركة فاصلة لا تزال رحاها دائرة استخدم فيها رجال الدين في أول عهدهم بها ما كان لهم من سلطان على الحكومات والعامّة فأسرفوا في البطش بخصومهم لابقوة الدليل ولكن بقوة الحديد والنار ، فكان ذلك شراً عليهم من جميع العوامل الموجهة اليهم ،
 أظن أنني بهذه العبارة قد وفيت بما يجب على في هذا المقام وقد تبسطت في بيان هذه الاضطهادات في أكثر من واحد من مؤلفاتي .

أما ما تقدمتوه من قول (سطوة الاتحاد على الأديان) فلا أراه سديداً ، فإن التعاليم تتنازع البقاء كالأحياء التي في بيئة واحدة ويبقى منها الأقوى . ولا يشترط أن يكون الأقوى هو الأكل ، فقد يقوى الظلم على العدل في بيئة أو يثبت فيزبل العدل منها ، وقد يقوى النقي على الرشد فيها فيقصيه عنها ، ولا ملامة على من يخبر عن ذلك بقوله سطوة الظلم على العدل أو سطوة النقي على الرشد .

قلتيم : « كل المبدعات الحديثة يصح أن يقال إن فيها أثراً من الاتحاد إذا أخذت على أنها تنافي الأديان أو قواعدهما المقررة أو تفسيراتها التي فسرت بها الكتب المقدسة .
 وليس أمامنا إلا أمرين اثنين أراء هذا الموقف : فاما أن نقول أن التفسيرات القديمة كانت خطأ ويجب أن توضع تفسيرات أخرى تطابق المبدعات الحديثة ، وعلى ذلك نحكم على كل الأجيال الماضية بأنها فهمت الدين فهماً غير مصيب ، وانها أخذته تقليداً

كما هو الواقع ، وذلك أحط ضروب المعتقد ، وأما أن تقضى بأن الأديان وتفسيراتها أشياء خاضعة لمبدعات العقل ، وأن العقل يكونها نكروياً ارضاء لنزعة الاعتقاد الثابتة في النفس الانسانية . وبذلك تفقد الأديان قدسيتها وغيبيتها ، وتصبح مظهر أنفسياً بسيطاً كأي مظهر آخر من مظاهر النفس الاجتماعية .

هذا ما ذكرتموه . أما أنا فلا أعرف أن في المبدعات الحديثة أدنى شائبة من شوائب الالحاد ، أو أقل نزعة من نزعاته ، اللهم إلا إذا كانت تنافي الآداب المقررة ، أو تروج الفساد في الأرض ؛ وهنا يتفق الدين والعلم والفلسفة على مناوراتها ، وتخليص الناس من ويلاتها .

أما قولكم فيما نقلناه عنكم هنا عن هذه المبدعات ومنافاتها لتفسيرات الكتب المقدسة . الخ . الخ ، فهذا كلام لا ينطبق على الاسلام من أية ناحية من نواحيه . فهو ليس بالدين الذي يجاقى العلم أو يحقر من حكم العقل ، والذي يلوح لي أنكم لم تدرسوا هذا الدين دراسة علمية لتقفوا على أصوله ومرامييه ، ولو كنتم فعلتم ذلك لرأيتم بأنفسكم عن توجيه ما وجهتموه اليه من الشبهات وعن نشر ما نشرتموه لبعض الكتاب في هذا المعنى في أجزاء شتى من المصور ، فكنا نقرأ هذه المنابذات مؤملين أن تلوح الفرصة للفت نظركم إلى ما فيها من البعد عن الصواب ، حتى لاحت هذه الفرصة فلا تنهرها لآيين لكم أصول الاسلام على ما فهمه أهله الأولون ، ودونه أئمنه في مؤلفاتهم الرسمية في خلال العصور فأقول :

الاسلام لا يتقيد بتفسيرات أحد كائناً من كان . فإذا ثبت بطلان قول من الأقوال وأفن رأى من الآراء ، وجب على كل مسلم لفظه ، سواء أكان من أقوال الأولين أم من آراء الآخرين .

الاسلام ليس فيه تابع ومتبوع ، ولا صاحب رأى ومقلد ، ولكل فيه رجال ذوو عقول يشعرون بتبعات الاعتقاد ، ويطالبون بالدليل على ما يقولون وما يعتقدون . الاسلام دين العقل والعلم ، فكل ما ترجح بحكم العقل ، وكل ما ثبت بجهد العلم ، وجب الأخذ به حتى ولو كان مخالفاً لمظاهر القرآن والسنة . وقد خلس الأولون من هذا المأزق باللجأ إلى التأويل ، وهم ما اضطروا إلى ذلك إلا مدفوعين اليه بالدين نفسه فانه يحتم التعديل على حكم العقل وعلى ما ثبت بالحس ، وكيف يمكن ذلك مع وجود بدو ص مناقضة له إلا على هذا الأسلوب ؟ وهو أسلوب مشروع فان اللغة العربية مبنية على التشبيهات والاستعارات . المجازات والكنايات فيحمل كل ما يناقض العلم

والعقل على هذه انغصات البلاغة . وقد جاء في الكتاب الكريم : « كل شيء هالك الا وجهه » . و « يد الله فوق أيديهم » الخ . الخ ، فقال المسلمون الأولون لا يعقل أن يكون لله وجه أو يد أو شيء مما يشبه ما للمخلوقين فيجب تأويل كل ما يشير إلى ذلك من سائر الآيات .

ولما ترجم العرب المؤلفات اليونانية ورجحوا رأى فيثاغورس في كروية الأرض أولوا جميع الآيات الدالة على أنها منبسطة وهلم جرا
وإني مساجلكم البحث بعد هذه المقدمة فيما قلموه في مقالاتكم عن المبدعات الحديثة والتفسيرات الدينية قالكم :

لأدرى ماذا تقصدون من عبارة (المبدعات الحديثة) فإن اردتم بها المخترعات الحديثة ، فإن الاسلام يأمر بالأخذ بها والسبق إليها . وقد جرى المسلمون على هذه الطريقة فأخذوا كل ما صادفوه من حسن ونافع في المدينات الفارسية واليونانية والرومانية ، ولم يكتفوا بما هو معروض وشائع ، ولكنهم بذلوا جهداً جهيداً في ترجمة ما هو مهجور من كتب الفلاسفة والاطباء والعلماء الأقدمين ، فلم تحض سنوات معدودة حتى ازدهرت المدن الاسلامية بالعلوم والفنون والصنائع ، وزاد فيها علماء المسلمين زيادة قدرها فائدة الاوربيين أحسن تقدير ، ولم يبق أمر هنة النهضة الاسلامية الفخمة خافياً على أحد (راجع مؤلفات دوربرسفال وسديو ودروى وجوستاف لوبيون ودرابر وغيرهم في هذا الباب)

وإن كنتم تريدون بالمبدعات الحديثة الآراء العلمية ، والمذاهب الفلسفية ، فالاسلام لا يمنع النظر في شيء من ذلك ، حتى انه سمح بتعلم السحر والشعوذة . وقد نظر المسلمون الأولون في جميع الآراء التي صادفوها وترجموها وشرحوها ونشروها في الآفاق معتبرينها آراء ومذاهب كما هي في الواقع .

فالاسلام لا يحظر شيئاً من هذا ، ولكنه يحظر اعتبار الظنيات حقائق ، وبناء قصور من الاوهام والخيالات عليها . واثم خير أن كل الآراء التي كانت تعتبر في نظر السابقين من المسلمات العلمية قد أصبحت أثراً بعد عين ، وحل محلها غيرها مما هو أقرب الى المنطق العلمي ، وأقبل للانطباق على أسلوبه . أما ترى آراء انشتين كيف قلبت جميع الآراء التي سلم بها البشر الى اليوم على الزمان والمكان والمادة والحاذية العامة رأساً على عقب ؟ وقد زاد فقره : « موجود الخط المستقيم في الكون فأصبح علم الكون والكونيات في نظر العلماء غير ما كان عليه قبل ظهور هذا الرياضي

الكبير . ومن الخرق أن تقول إن مذهب اشتين هو الكلمة الأخيرة للعلم . إذ لا بد أن يظهر نوايا آخرون يرون آراء جديدة تقرب الحقيقة من الأذهان في خلال الوف السنين المقبلة حتى يصل الإنسان إلى العلم الذي ليس بعده جهل ، ويكون مذهب اشتين بجانبه أشبه بأفانيس العجائز اليوم .

فالاسلام بازاء هذا الامر الجلل يأمر أهله بالنظر في كل ما يقال مع التحفظ والاحتياط الجديرين بالمشيئين من الناس . ومصدق ذلك أن علماء من المسلمين الاولين تكلموا في تسلسل الاحياء بعضها من بعض ، وهو بعينه نظرية النشوء والارتقاء ، قبل لامارك ودارون بأكثر من ألف عام (راجع كتاب تنازع العلم والدين تأليف العلامة درابر)

أما ما قاله الاقدمون فالاسلام لا يقيد به احدا من ذريه حتى ولو كانوا من الانبياء والمرسلين ، فقد قال عقب ذكر جماعة منهم : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » فكل مسلم حريصا يرى ويعتقد وهو وحده مسؤول عن ذلك ومطالب بالليل عليه ، لاسلطان لاحد على عقله . تقولون : « إما أن تقول ان التفسيرات كانت خطأ ... وعلى ذلك نحكم على كل الاجيال الماضية بأنها فهمت الدين فهما غير مصيب ، وانما أخذته تقليدا ، كما هو الواقع ، وذلك أحط ضروب المعتقد الخاطئ »

تقول هذا كلام لا يتجه منه إلى الاسلام شيء ، فانه لم يجعل للعلم حدا ، بل صرح بان ما لدى النوع البشرى منه نزر لا يعتد به فقال : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وان العلم قابل للزيادة على مدى الايام ، ويجب الدؤوب على طلبه : « وقل رب زدني علما » . والعلم في مذهب الاسلام هو المسند من الواقع لا من الظنون والاهام فقال : « انظروا ما ذا في السموات والارض » وقال : « قل سيروا في الارض فانظروا »

وقال في الزجر عن الاخذ بالظنون والاهام : « ان يتبعون الا الظن وان هم لا يخرصون » وقال : « وما يتبع اكثرهم الا ظنا » وان الظن لا يغني عن الحق شيئا . وبناء على هذا فليس للسلمين تفسيرات قديمة للكون والكونيات تعتبر في نظرم مقدسة لا تحتل الاخذ والرد ، ولم يتم في هذه الملة من قال أن آراء بعينها أو مذهبا معينا يجب التسليم به تسليميا اعمى ، حتى ولا ما ورد من ظواهر الكتاب

والسنة كما اثبتنا لك ذلك في أول هذه العجالة . فالمسلم مستعد للاخذ بكل مذهب يثبت بالدليل القاطع انه حق ، وله أن يزول كل ما يخالفه من النصوص الدينية الواردة فيه ، وهو مأمور بذلك ومطالب به ، وقد جرى أهل هذه الملة على هذا النحو من أول وجودهم ، وفي أشد عهود حماسهم الدينية .

وقد ذكرتم (التقليد) ، وقلتم عنه (كما هو الواقع) وأنا أقول لكم إن التقليد حرام على كل مسلم ومسلمة بحكم الدين نفسه ، فلا يجوز لأحد أن يقلد انساناً كان ، وإنما يجوز له أن يتابعه في آرائه بعد أن ينظر في أدلته ، ويقارنها بأدلة غيره ، ويدرك رجاحتها عليها . هذا ما قاله علماء الدين حتى بالنسبة للعبادات والمعاملات . وقد تبرأ واضعوا المذاهب الفقهية ، أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ودارود وغيرهم من الذين يتابعونهم في آرائهم تقليداً بغير تثبت ، لأن التقليد غير جائز في الاسلام كما قدمنا .

ثم قلتم : « وإما أن نقض ، بأن الأديان وتفسيراتها أشياء خاضعة لمبدعات العقل يكونها تكوننا جديداً كلما شعر بالحاجة الى ذلك ارضاء لنزعة الاعتقاد الثابتة في النفس وبذلك تفقد الأديان قدسيتها »

هذا الكلام تستدعي المناقشة فيه بياناً وجيزاً وهو أن الدين في مذهب الاسلام فطرة في النفس البشرية : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وهذا بعينه هو الذي عبرتم عنه بنزعة الاعتقاد الثابتة في نفس . بعد أن قرر الاسلام أن الدين على اطلاقه فطرة في كل نفس بشرية . قرر أن الناس يتفاوتون في توفية حاجة هذه الفطرة على نسبة تفاوتهم في القوى العقلية ، وتحالفهم في الدرجات العلية ، فقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » ، وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا للعالمون » ،

وقد رفع الاسلام من قدر العقل حتى جعله أول مخلوق فقد ورد في الحديث : « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر النخ » ،

ثم قرر بأنه صاحب السلطان المطلق ، وأن له الحكم النافذ في كل ما يختص بالانسان حتى العقائد . فليس في الاسلام قاعدة (الدين فوق العقل) إذ ليس على الانسان أن يعتقد ما لا يعقل ، أو ما ليس لديه على صحته دليل : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، ومن مقرراته أن الانسان يرتقى في الدين على قدر تربيته في العقل لهذه الاعتبارات كلها لم يقبل الاسلام الايمان التقليدي . وقد قرر ذلك أئمتنا في

كتبهم فقالوا : (ايمان المقلد غير مقبول) . فلا بد لكل معتقد من أدلة يبنى عليها اعتقاده بقدر ما يهديه اليه عقله وعلمه . لأن التقليد كما يكون في الحق يكون في الباطل ، فكيف يقبله دين أسسه العقل ، وأسلوبه النظر والاستدلال ؟ وهل جاء الاسلام إلا للتعنى على المقلدين من أهل الملل ؟ ألم يقل فيهم : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . وفي آية أخرى : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ » وقال : « نبتوي بلم ان كنتم صادقين ، وقال : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون الا الظن ، وان أتمم الا تخرصون ، - تخرصون بمعنى تكذبون

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الاسلام دين الفطرة بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، أى أن المسلم دينه الفطرة المجردة عن التعاليم والموروثات فهي وحدها كافية بما ركب فيها من القوى الى هدايته الى أقوم السبل وأصدق العقائد . وهذه القوى هي العقل وما يقوم عليه من الفكرة والنظر والاستقراء والتحليل والتركيب الخ ، فالمسلم مطالب بأعمال جميع هذه القوى في حدودها الطبيعية ، والخضوع لأحكامها وتأويل كل كلام مقدس في سبيل الوقوف معها . وهذا أخص معاني الاسلام وبه مد رواقه على أكثر بلاد المعمورة في أقل من قرن من الزمان .

قلتم : « إن حرية الفكر قد تناولت في الماضي الفروع ، أما الآن فانها بدأت تعمل الفأس البائرة في الاصول ، وهذا ما يدعوه وجدى بك سطوة الاتحاد على الاديان ،

تقول هذا اجمال تدفعه باجمال مثله فاليكم :

ان كل ما تناوله حرية الفكر . وثبت بالدليل القاطع أنه ليس بحق ، فلا يجوز أن يقول به مسلم ، لأن دينه يحثه على طلب الحق من كل شيء ، فان ثبت له ان قولاً قال به هو فيما مضى : أو قال به ارفع رأس من أسلافه في خلال العصور باطل وجب عليه الرجوع عنه بحكم الاصول التي يدين بها . وقد سهل الاسلام على الناس مراعاة هذا الرجوع فقرر ان للجهل أجراً وان أخطأ ، وان للصيب أجرين . لهذا يحفظ عن جميع أئمة هذه الامة انهم ارتأوا آراء وادفعوا عنها مدة ، ثم رجعوا عنها لقيام الدليل على بطلانها حتى ليكثر في كتب الفقه قولهم : هذا قول قديم للشافعي ،

وهذا قول جديد لمالك النخ . وقد روى يوماً أكبر المفسرين الاسلاميين
غفر الدين الرازى وهو يبكى ، فسنل عن سبب بكائه . فقال : ان رأياً قلت به منذ
ثلاثين سنة تبين لى الساعة أتى نت خطأ فيه . ولهذا اعتاد أئمة المسلمين أن يحتموا
كل رأى لهم بقولهم : (والله أعلم) . ولهذا أيضاً لم يقفلوا باب الاجتهاد فى وجه أحد
من المفكرين الى يوم الدين .

فأنا لا أقول أن المسلم لا يخشى حرية الفكر ان تأتى بأصل يسطر على ما عنده
غضب ، ولكن أقول أن دينه يأمره بأن يكون حراً فى تفكيره ، وأن يتوجه مع
الدليل حيث اتجه غير حياء ولا وجل .

وبما يؤثر عن هذه الملة ويدل على تأصل هذا الأصل فى نفوس أبنائها ظهور
المذاهب المختلفة ، والآراء المتباينة فى أكبر عهودها عملاً بالدين ، ووقوفاً مع تعاليمه .
فظهر المعتزلة على اختلاف مذاهبهم ، وظهر بجانبهم كل ما يمكن أن يؤدى الى البحث
الحرقى الاباحية والمعتلة والدمرية ، ولا تزال لهم بقايا الى اليوم .

أما الأصول التى قلتم انه تعمل فيها اليوم الفأس البائرة فلا ندرى ماذا تقصدون
منها ؟ فان كان مقصدم الاعتقاد بالخالق والروح والخلود فان العالم العلوى اليوم أصبح
يعطف على هذه الأصول بتأثير المذاهب العلمية التى قلبت توجهات النظر رأساً على
عقب فى العصر الحاضر . زد على ذلك أن المباحث التى عملت فى الانسان للبحث
عن قواه النفسية قد أسفرت عن نتائج مدحشة لطفقت من حدة الماديين تلطيناً عظيماً .
فالأصول التى ترون أن الفأس البائرة تعمل فيها اليوم أصبحت ترد تلك الآداة
الى رؤوس أصحابها فتحطمها تحطيماً . وقد كنت أود أن يكون لدى متبع من الوقت
فأطيل فى هذه المباحث ، ولعلكم تعطوننى الفرصة لذلك فى أعداد العصور المقبلة .

محمد فريد وجدى